النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٦ —

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين فى زعمهم أن ليس ثمت إلا الجسم وأجهزته والمخ وآثاره ، فانهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين . كما أن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هى الحقيقة ، وماوراءها صور وأوهام فان هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون إلا باصل واحد ماديا كان أو روحياً يبنون عليه تفسيراتهم وحلولهم . أما من يقولون بالجسم والنفس ، بالمادى والروحى ، بالثنائية على العموم ، فانهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها . وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر ؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل فى كل مراحل التاريخ

فقديما نرى أفلاطون ، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان ، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة ، فيقول حينا إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وانها الانسان على الحقيقة ، ويظن حيناً آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم ، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاما كثيرة بميوله وأهوائه ، وهى من جهة أخرى تحارب به وتجد فى الخلاص منه ، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتقى الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما فى الآخر ؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون . ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم ؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئاً واحداً . بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الأمام كثيراً . ومع هذا فقد قرر له نجاح كبير فى القرون الوسطى ؛ فان أغلب الفلاسفة المدرسيين يزعمون أن النفس صورة للجسم فى الوقت الذى يقررون فيه أنها جوهر روحى ذو شخصية مستقلة ، وهذا تناقض مكشوف

وفى التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة ، ويثير هذا الموضوع فى شكل حاد ، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مميزاً الأول بالحيز والثانية بالتفكير ؛ وهذه هى الثنائية الأفلاطونية فى أجلى مظهر . ولكن عبثا حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما . ثم طمع أتباعه فى أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ . وربما كانت فكرة التناسق الأزلى التى قال بها ليبنز هى أشهر محاولة فى هذا الباب ، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلا بحيث يتفقان وإن صار كل منهما فى طريق خاصة ؛ وخضوع الأول لقوانين السببية لا يحول دونه ، والارتباط بالأخيرة التى تخضع لقوانين الغائية . وما أشبههما بساعتين محكمتى الصنع تلتقيان فى قياس الزمن ، وإن كانتا تبينانه بأشكال مختلفة . تصوير جميل ومهارة فى التوفيق ، شان ليبنز فى كل فلسفته ؛ غير أنه فى الواقع توفيق صورى وربط خيالى ، فان مؤداه أن لا صلة بين الجسم والنفس ، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد فى حلها وتوضيحها ، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية ؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التى يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها . وفى رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالا وثيقا ومتعاونان دون انقطاع . فلولا النفس ما كان الجسم ، فانها مصدر حياته والمدبرة لأمره والمنظمة لقواه . ولولا الجسم ما كانت النفس ، فان تهيؤه لقبولها شرط لوجودها ، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها ؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها ؛ فهى منذ نشأتها تواقة إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله . وفى أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه . ويكفى أن نشير إلى التفكير الذى هو عملها الخاص فانه لا يتم إلا أن أزقدتها الحواس بآثارها (١) . وواضح أن العقل ذو دخل كبير فى الجسمى ، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة ،

(١) ابن سينا ، الشفاء ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ : النجاة ، ٢٩٧ - ٢٩٩ .

وللجسمى أيضاً أثر على العقلى ، فقد تنتج الحركة فكرة ويبعث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور[1] . يقول ابن سينا : « انظر انك اذا استشعرت جانب الله وفكرت فى جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك ، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف ، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض[2] » .

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل ؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحى ولا يعز عليهم إثباته ، ولكن المشكلة هى : كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقى الجسمى بالنفسى ؟ لكى يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية ، فيوزع أولا قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معيناً ، فالحس المشترك مثلا متمركز فى اول التجويف المقدم للدماغ ، والمصورة فى آخر هذا التجويف ، والوهم فى نهاية التجويف الأوسط ، والحافظة فى التجويف المؤخر[3] . ويلاحظ ثانيا أنه لابد لهذه القوى من خدم تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها . ووسطها جميعا جسم لطيف روحانى منتشر فى الجسم ، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف ، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس . وهذا الجسم هو الروح التى تمد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض ، فكأن القلب الجزء الرئيسى الذى يلتقى فيه الروحى بالمادى والعقلى بالجسمى . حقا إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبى ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة ، ولكنه هو أيضا خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التى يبعث بها إليه[4]

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت بنسب إلى ارسطو . فان تركيز قوى النفس فى مناطق خاصة من الدماغ أمر عنى به جالينوس ، ثم أخذه عنه العرب فى شىء من التصرف ، فنراه لدى الفارابى كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين . والروح التى تربط القوى النفسية باجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئا آخر سوى الأبنيما (Pneuma) التى قال بها اليونانيون الأول . وذلك أن ديوجين الأبولونى يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذى يسبح فى أوردة الجسم وشرايينه[1] . ويقول هيرافليط إن التنفس يغذى النفس بالهواء الذى لولاه ما كانت حياة ولا عقل[2] ومن هنا تولدت نظرية الأبنيما التى لعبت دوراً هاماً فى الفسيولوجيا وعلم النفس القديم .

ومعظم أطباء الأغريق لا يرون فى الابنيما مصدر القوة والحرارة الانسانية فقط ، بل يعدونها منبع التفكير ، وكثيراً ما يخلطون بينها وبين النفس . والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية . وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التى قامت على أنقاضها . ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكى والمترجم المشهور المتوفى سنة ٨٣٥ ميلادية هو أول من أدخلها فى العالم العربى ، فقد كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح[3] فبينما الأولى فى رأيه جوهر روحى بسيط غير قابل للفناء اذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية ، واذا ما توقف عن الحركة كان الموت . فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم ويعد للادراك ، وبذا استطاع قسطا أن يوفق بين الابنيما التى يعول عليها الأطباء والنفس التى ينادى بها الفلاسفة ، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكرى الاسلام .

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما فى الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس . ففى حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك الى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية . وابن سينا ، وان كانت منزلته الطبية لا تقل عن درجته الفلسفية ، لا يتردد فى أن ينتصر لأرسطو . ويصرح ، على أى أساس لا أدرى ، أن الفلاسفة هم أصحاب

(١) الاشارات ، ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٢١ - ١٢٢ .
(٣) النجاة ، ٢٦٦ .
(٤) الشفاء ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(1) Janer, Hisr. de la philos., 744.
(2) I bid., 752.
(٣) وصلنا هذا البحث عن طريق اللاتينية والعبرية : ولقد نشر الاب ارباس شخو الاصل العربي سنة ١٩١١ .

الرأى والذين يستطيعون الفصل فى مثل هذه المسائل، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل فى الحركة والاحساس. ومهما يكن فلعل هذه الآراء هى منبع تعريف العقل المشهور الذى يردده المتأخرون من مؤلفى العرب، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ

لا نظن أنا فى حاجة الى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الابنيما وما يتفرع عنها، ودراسة الجهاز العصبى الحديثة لا تدع مجالا لتلك الآراء التى كانت تعد القلب المركز الرئيسى للحياة النفسية. والنظرية القائلة بتوزيع المخ الى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص، وإن كانت قد صادفت أنصارا عديدين فى القرن التاسع عشر، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعا. على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظرى، ويخلط المادى بالروحى دون أن يوضح كيف يتفاعلان؛ والصعوبة كل الصعوبة فى توضيح هذا التفاعل. فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكارا أرسطية الى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تنافر أو تعارض.

(يتبع) ابراهيم مدكور

الحاكم بأمر الله

واسرار الدعوة الفاطميـــة

بقلم محمد عبد الله عنان

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بامر الله، وشخصيته العجيبة، وحياته المدهشة، واختفائه المؤسى؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشا والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بعنوانه بشارع الهامى نمرة ٢١ ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدابغ وسائر المكاتب الاخرى

فى الأدب المقارن

القصص

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستماع بسماعه طبيعيان فى الانسان، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع إلى مشاهده حوادث الحياة تترى أمام عينيه، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه. والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول. وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص. وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية.

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم، فما من شىء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله، فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام، دائراً حول الالهة والملوك والابطال والقبائل؛ وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات. وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر، يتمثل فى أساطير الاولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان، وبارتقاء الجماعة العقلى يتخلص العلم رويدا رويداً من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله

وإذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك، وإن بطل الاعتقاد فى كثير منها، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره، فاتخذ وسيلة لاسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة. أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان، أو أفواه الأرواح